الدرس التاسع

دروس حول آلام لا تفسير لها

سفر أيوب

1. مقدمة

يمكن أن يشكّل سفر أيوب نقطة بداية جيدة لدراسة العهد القديم. إذ لا تعطينا بداية سفر التكوين في واقع الأمر معلومات حول جوهر الله وطبيعته الأخلاقية، أو حول عالم إبليس وأجناده. ونحن لا نلاحظ وجود صراع روحي متأججٍ إلاّ بعد فوات الأوان – بعد أن سقط آدم وحوّاء في مكيدة الحيّة وخسرا ما عهد به الله إليهما في البداية. فهل الإله المقدَّم لنا في تكوين 1: 1 إله صالح؟ وما هو موقف إبليس من البشر ونظرته إليهم، خاصة أولئك الذين يتّبعون الرب؟ وهذا النوع من الأسئلة هو الذي يعيننا سفر أيوب على سبر غوره.

لكن لكي يتمكن الإنسان من التعامل مع هذه الأسئلة، يجب أن يوضع في موقف يتذوق فيه شيئاً من هذه الآلام، إذ لا يستطيع أن يفهم طبيعة الله الأخلاقية بالمقابلة مع طبيعة إبليس إلاّ في اختباره للألم والمعاناة. وبشكل أكثر تحديداً، يتناول سفر أيوب "المعاناة غير المفسَّرة" التي تجعله يشكك في طبيعة الله الأخلاقية. وينبغي أن يُطرح السؤال الخالد "لماذا؟" إذ يطرح أيوب سؤالاً مفاده: "لماذا جعلني الله أعاني وأنا بريء" و "كيف يمكن لله أن يتعامل معي على هذا النحو إن كان إلهاً بارّاً وعادلاً حقّاً؟"

2. خلفية السفر

أ. على الأرجح أن الخلفية الزمنية لسفر أيوب هي في زمن الآباء (لنلاحظ عمر أيوب 42: 16، بالإضافة إلى غياب الإشارة إلى الشريعة الموسوية). إنه رجل مباركَ، لكن إبليس يريد أن يبتليه ويؤذيه. وينبغي أن نضع في ذهننا ونحن نقرأ سفر أيوب أنه يُسمح لنا (كقرّاء) برؤية كلا المنظورين: المنظور السماوي والمنظور الأرضي من وجهة نظر أيوب. غير أن أيوب لم يكن قادراً على رؤية ما يجري خلف ما هو ظاهر مثلنا. لم يكن أيوب يدرك أن إبليس يعمل لينال منه.

ب. جدال إبليس:

لدى إبليس الفكرة أن أيوب لا يعبد الله إلاّ بسبب الأشياء الرائعة التي يفعلها الله من أجله، لا لأنه يحب الله حقّاً. ومن هنا يثار سؤال: ما هو الدافع وراء تقوى أيوب؟ على أية حال، تؤدّي الفرصة المعطاة لإبليس لابتلاء أيوب إلى سؤال أكثر أهمية: ما هو أساس علاقة الإنسان بالله؟

ج. لنضع في أذهاننا ونحن نتقدم في دراسة السفر أن أيوب لم يفعل شيئاً يستوجب هذه البلوى التي عاشها. فهو لا يعاني بسبب خطية في حياته. غير أن نظرته إلى الله تتدهور بالفعل مع تطوّر القصّة. وهذه المشكلة في النظرة إلى الله هي ما يجب تصحيحه!

3. نظرة عامة شاملة إلى سفر أيوب

انظر ملحق هذا الدرس (الذي يتضمن جدولاً) من أجل بنية السفر الكلية.[1]

4. مساهمات الوحدات الرئيسية للسفر

أ. المقدمة التمهيدية (الأصحاحات 1 – 2)

1. موقف إبليس:

لا يعبد أيوب الله إلاّ بسبب ما يعود عليه ذلك من منفعة شخصية. انزع البركة منه وسيلعن الله (1: 9 – 11).

2. النتيجة: أيوب بائس جداً في ظروفه غير المحتملة حتّى إن زوجته تحرّضه على أن يلعن الله. لكن يَثْبُت خطأ إبليس: إذ لا يلعن أيوب الله (2: 9 – 10).

ب. شكوى أيوب (أصحاح 3)

على الرغم من أن أيوب لا يلعن الله، إلاّ انه يلعن وجوده (وجود أيوب) نفسه. وهو عالق في معضلة محاولة شرح كيفية إمكان حدوث كل هذا له. وهو يقول ما مفاده: "ما الذي فعلتُه لأستحق هذا؟"

ج. حوار أيوب مع أصدقائه (الأصحاحات 4 – 28)

هذه الأصحاحات مرتَّبة في ثلاث دورات، تتألف كل دورة منها من نصائح يقدّمها أصدقاؤه مع ردّ أيوب عليها.

1. الدورة الأولى (الأصحاحات 4 – 14)

[1] من أجل الاطلاع على نقاش ممتاز للشكل والميزات الأدبية للسفر، انظر Gregory W. Parson, "The Structure and Purpose of the Book of Job, "*BibSac* 138 (Apr – Jun 1981), 139 – 57; and "Literary Features of the Book of Job," *BibSac* 138 (July-Sep 1981), 213 – 29.

أ. مشورة أصدقائه: المشورة الأساسية التي يقدّمها أصدقاؤه هي أن أيوب يعاني بسبب خطيته الشخصية (لاهوت الاقتصاص والعقاب).[2] ومن هنا فإنهم يقترحون عليه أن يعترف بخطيته ويتوب عنها.

ب. رد أيوب: أيوب منفتح لفكرة إمكانية أنه أخطأ لكنه يطلب منهم أن يخبروه بذنبه (أي أنه لا يعترف بذنب).

2. الدورة الثانية (الأصحاحات 15 – 21)

أ. مشورة أصدقائه: الأشرار يعانون لأنهم يتحدّون ويهينون الله.

ب. ردّ أيوب: الأشرار لا يعانون دائماً، بل كثيراً ما ينجحون ويزدهرون.

3. الدورة الثالثة (الأصحاحات 22 – 28)

أ. مشورة أصدقائه: يتوسلون إليه بأن يتوب لكي يردّه الله ويشفيه.

ب. ردّ أيوب: لن يتوب، إذ يشعر بأن قضيته عادلة.

د. تصريح أيوب النهائي (الأصحاحات 29 – 31)

توجد عند هذه النقطة من السفر نقلة توكيد على خلاف أيوب مع الله. ويمكن تلخيص هذه الإصحاحات كما يلي:

الأصحاح 29 – اشتياق أيوب لحالة الازدهار المباركة السابقة.

الأصحاح 30 – تفجُّع أيوب على حالته الشقيّة الحالية

الأصحاح 31 – قسم أيوب ببراءته

تشكّل هذه الأصحاحات قسماً هامّا جداً من السفر، لأن نظرة أيوب إلى الله تصبح أكثر فأكثر حماوة. فهو ينتقد الله ويود أن يتبارى معه أو يجادله في هذا. وفي هذا نرى مشكلة أيوب الحقيقية: فهو لم يخطئ ليستحق المعاناة والألم، لكنه في معاناته وألمه ينتقد شخصية الله وطبيعته الأخلاقية! بل إنه يحس في واقع الأمر أن لديه "قضية قانونية" يمكنه رفعها ضد الله، كأن الله يمكن أن يحاكَم (لاحظ 31: 35 – 37!). وتتمثّل مشكلة أيوب في عدم تمكّنه من التوفيق بين معاناته وآلامه وبين كون الله قاضياً غير متحيّز – فلم يكن أمامه إلاّ أن يشك

[2] يفترض "لاهوت الاقتصاص والعقاب" علاقة آلية بين عمل المرء وحالة البركة، ومن هنا فإن كل معاناة هي بسبب الخطية، أمّا البركة فنتيجة محتومة للطاعة. وتتمثل مشكلة هذه النظرة في أنها، على الرغم من صحتها في العهد القديم، غير آلية أو صحيحة بشكل شامل.

بطبيعة الله الأخلاقية. يقول بارسونز: "تصوَّر أيوب الله سيّداً مستبّداً نزوياً يسيء استغلال قوّته (9: 15 – 24؛ 12: 13–25)، وهو يعامل شخصاً بريئاً كأيوب بشكل حقود كما لو أنه عدوٌّ شخصي له."[3]

هـ. خُطب أليهو الأربع (الأصحاح 32 – 37)[4]

بعد توجيه أيوب لاتهامٍ ضد الله في الأصحاح 31، يتأخر ردّ الله على أيوب. ويُسمح لأليهو، وهو صديق آخر من أصدقاء أيوب، بالحديث. لكن ما الجديد الذي يضيفه هذا الصديق؟ يقول أليهو إن كلا الفريقين على خطأ. فهو، من جهة، يوبّخ الأصدقاء الثلاثة الأوائل لقولهم بأن معاناة أيوب تأتي كمجرد عقاب على خطية ماضية. لكنه، من جهة أخرى، يبيّن كبرياء أيوب. يحاول أن يقدّم تفسيراً بديلاً، لكنه يحاول، مثله في ذلك مثل أصدقائه، أن يضع المسألة ضمن إطار محدَّد. أليهو مخطئ في افتراضه أن أيوب ارتكب خطيئة، لكنه مصيب في أن نظرة أيوب إلى الله خاطئة: ينطوي موقف أيوب على مغالطة لأنه يوحي بأن الله مدين للإنسان بسبب بر الإنسان. لم تكن مشورة أليهو مرضية لأيوب، فيحتكم إلى الله، لكن بطرقة يتحدى فيها الله مطالباً بجواب. غير أن أليهو يمهّد الطريق بالفعل للقسم التالي بإثارة مسألة عجائب الله في الخليقة.

و. استجابة الرب (الأصحاح 38 – 42: 6)

في استجابة الرب تثار عدة نقاط ويُجاب عنها:

1. الله مسيطر – غير أن الموقف ينطوي على أكثر مما يدركون!
2. تُكشَف عظمة الله – وهي مدعاة للتواضع!
3. يعمل الله وِفق خطة – وينبغي أن نقبل ذلك بالإيمان!
4. مسألة العدل (لماذا؟) – [لا جواب]

---

[3] Parsons, "The Structure and Purpose of the Book of Job," 144.

[4] لفهم أكثر لهذا القسم، انظر – Larry J. Waters, "The Authenticity of the Elihu Speeches in Job 32 – 37, "*BibSac* (Jan – Mar 1999), 28 – 41.

لم تفسَّر المسألة الأخيرة – مسألة عدل الله. إنّ خليقة الله رائعة وعبقريته الخلاّقة بديعة (ممّا يقدّم لنا أسباباً تدعونا إلى الثقة بمثل هذا الإله المهوب)، لكنّ الله لا يحاول أن يفسّر عدله كأنه مجبر على تقديم حساب عن نفسه. وهذا هو مفتاح السفر كلّه، فعلى مدى السفر، يحاول الجميع أن يحدد السبب. لكنّ هذا هو عين الشيء الذي لا يقدّمه الله (فهو لا يشرح السبب). ليست علاقة أيوب بالله قضائية، ومن السخافة أن يحاول أيوب استغلال الله أو التلاعب به عن طريق دعوى قضائية. فلن يُكْرَه الله أو يُتلاعَب به بمطالبة أيوب المتّسمة بالتحدي لله بتبرئة نفسه بسبب بر أيوب الأخلاقي (وفي واقع الأمر يتجاهل الله ادعاءات أيوب حول عدم عدله، فيما عدا 40: 8).

يرفض الرب أن يدخل في مساءلة حول مسألة التعامل العادل مع مخلوقاته، ولا يجيب عن السؤال "لماذا؟" لكن مسألة "الشخص المعني" أو "مَن" هي أكثر أهمية من السبب أو "لماذا"! تتضمن ضرورة معرفة السبب أن أيوب لن يقرر إن كان الله عادلاً أم لا إلى أن يعرف السبب.

لكن ما الذي يفعله أيوب في السفر؟ هل كان يبحث عن تفسير، أم أنه كان يدعو الله إلى أن يكون عُرْضة للمساءلة؟ إن الفكرة الرئيسية للسفر هي أن الله مسيطر تماماً وأنه غير مسؤول أمام أحد عمّا يفعله في العالم.

ز. الخاتمة (الإصحاح 42: 7 – 17)

يدرك أيوب خطأه ويتوب استجابة لخطاب الرب (42: 1–6). فيكافئ الله أيوب في نعمته بأكثر ممّا كان عنده. لم يكن الله مديناً لأيوب؛ بل كان ما أعطاه لأيوب هبة غير مستحقة. هذه هي *النعمة*!

5. غرض السفر

ليس السفر في واقع الأمر عن "الألم غير المستحَق،" فهذه القضية لا تستخدم إلاّ لإثارة مسائل أكثر حيوية. فالسفر في واقع الأمر حول أساس العلاقة الصحيحة بين الله والإنسان. وممّا لا شك فيه أن نظرة إبليس كانت خاطئة، لكن كانت نظرة أصدقائه الذين حاولوا أن يفرضوا "لاهوت الاقتصاص" إلى حدّ مبالغ فيه خاطئة أيضاً. ليست علاقة الله بالإنسان علاقة يمكن فيها للمرء أن يستجوب الله أو يشكك فيه أو أنْ يطالبه بأن يكون موضع مساءلة: ليس الإنسان مساوياً لله، وليس قادراً على مجادلته في محكمة. الله مدهشٌ عجيب في خليقتِهِ! فكيف يمكن لإنسان أن يتوقع أن يكون على مستوى يتبارى أو يتجادل فيه مع الله؟

إن كل ما يمكن للمرء أن يفعله هو أن يتّكل على الله الذي خلق كل شيء، لا أن يتوقع أن يحصل على جواب عن كل شيء في هذه الحياة، وعليه أن يدرك أيضاً أن الله يتعامل مع الإنسان بالنعمة لا بما يستحق. يلخّص بارسونز غرض سفر أيوب بهذه الكلمات:

"يهدف السفر إلى تبيان أن العلاقة الصحيحة بين الله والإنسان مبنيّة فقط على نعمة الله السيادية واستجابة الإنسان بالإيمان والثقة المستسلمة الخاضعة."[5]

درس لحياتنا

هل كان الله عادلاً معك؟ غالباً ما نرغب في التشكيك في عدل الله، لكن هذه مسألة عقيمة، لأننا نحن البشر محدودون جداً في فهمنا حتى نقيّم مثل هذه الأمور، فلا يمكننا أن نرى كل جوانب الأمور. بل إن قضية "العدل" هذه تُقَيِّم المسالة الحقيقية، التي هي مسألة أساس علاقتنا مع الله. وسيفوتني هذا الأمر ما دمت أعتقد أن لديّ حكمة وحقاً يخوّلانني دعوة الله للمساءلة وتقديم حساب عن نفسه. وأنا بهذا أعوق الله عن تنفيذ رغبته في التعامل معي وِفق نعمته. أنا لست مؤهلاً للحكم على طريق الله! ولا بدّ لي أن أكون أعظم من الله لأحكم على طرقه! والبديل الوحيد لدي هو أن أتواضع وأثق به (فهو متسيد وقام بعمل رائع في الخليقة). وما أحوجنا إلى التواضع! هل تودّ أن تصرف الآن وقتاً في الصلاة من أجل التواضع؟

[5] المرجع السابق، 142.